

القَصَصُ الدِّينِيُّ  
الحلقة الثانية  
قِصَصُ السَّيِّرةِ

خَاتِمَةُ  
بُنْتُ خُوَيْلِدٍ

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

(قرآن کریم)

شَبَّ مُحَمَّدٌ حَتَّى بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالْعَشْرِينَ ، وَقَدْ  
 اشتهر أمره في مكة ، وعرف الناس فيه النزاهة ،  
 وطهارة الذمة ، والعفة ، والأمانة ، فسموه  
 «الأمين» . وفي ذات يوم كانت مكة تستعدُّ  
 لخروج تجارة خديجة بنت خويلد ، وكانت خديجة  
 من أشرف قريش ، ومن أغنيائها ؛ كانت تستأجر  
 الرجال للخروج في تجارتها ، وتقرض التجار  
 الأموال ليشاركوها في تجارتها ، وفي أرباحها ،  
 حتى تضمن أن يخلصوا لها .

وفي ذلك اليوم قابل أبو طالب محمداً ، فقال له :

— أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان ،

وأقبلت علينا سنون منكرة ، وليس لنا تجارة ، وهذه



قوافل قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ ترسل رجالا من قومك في قوافلها ، فيتَجَرَّونَ لها في مالها ، ويُصِيبون منافع ، فلو جئتها وعرضتَ نفسك عليها ، لأسرعتَ إليك ، وفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك .  
فقال محمد :

— فلعلها أن تُرسلَ إلىَّ في ذلك .

فقال له عمُّه أبو طالب : إنه يخاف أن تُولَّى غيره ، إذا لم يعرضَ نفسه عليها .  
ولكنَّ محمدًا أبى أن يعرضَ نفسه ، فما كان يُحبُّ أن يُكلِّمَ أحداً في أن يفعلَ له شيئاً .

ذهب أبو طالب إلى خديجة ، وقال لها :

— هل لك أن تستأجري محمدا .

فقالت له خديجة :

— لو سألت ذاك لبعيد بغيض لفعلنا ، فكيف وقد

سألت لحبيب قريب ؟

وأرسلت خديجة إلى محمد ، فلما جاءها ، قالت

له :

— إنني دعاني إلى أن أرسل إليك ، ما بلغني من

صديق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ،

وأنا أعطيك ضعفا ما أعطى رجلا من قومك .

وقبل محمد أن يعمل في تجارة خديجة ، وقابل عمه

أبا طالب ، وذكر له ذلك ، فقال له عمه :

- إن هذا الرِّزْقَ ساقه الله إليك .

٣

تأهَّبَ مُحَمَّدٌ للخروج في تجارةٍ خديجة ، مع عبدِها  
مَيْسِرَةَ ، فجاء أعمامُه يودِّعونَه ، ويوصُّون به  
الرجال . كانت هذه أوَّلَ مَرَّةٍ يخرجُ فيها وحده .  
وسارت القافلةُ ليالىَ وأياما ، ومُحَمَّدٌ وميسرةُ  
يتحدَّثان ، فيُعْجَبُ ميسرةُ بحديثِ مُحَمَّدٍ ، وحسنِ  
أخلاقِه ، وكانت الأيامُ تزيدُه قُرْباً من نفسه .

ووصلتِ القافلةُ إلى سُوقِ بُصْرَى ، فراح مُحَمَّدٌ  
وميسرةُ يبيعان تجارةَ خديجة ، فكان بين رجلٍ وبين  
محمد ، اختلافٌ في سلعة ، فقال له الرجل :

- احلف بالآلاتِ والعُزَّى .

فقال مُحَمَّدٌ :

- ما حلفتُ بهما قطّ .

فقال له الرَّجل ، وهو ينظر إليه في دهَش ،  
فالعربُ جميعاً يحلفون بهما :

- القولُ قولُك .

لم يعارض الرَّجلُ محمّداً ، لأنه فطنَ إلى أنّه يختلفُ  
عن هؤلاء التُّجّار الذين يحلفون بالأصنام ، ويكذبون  
في قسَمِهِم .

باع الرجالُ ما معهم ، وقد ربّحوا ربّحاً عظيماً ،  
فجاءَ ميسرةً إلى محمّد ، وقال له وهو فرحان :

- يا محمد ، اتَّجرنا لخديجةَ سنين ، فما ربّحنا ربّحاً  
قطّ أكثر من هذا الربح على وجهك .

وقفت خديجة في غرفة عالية تنتظر ، فرأت الجمال والحمير والبغال قادمة من بعيد ، وقد ارتفع غبارها ، فعرفت أن قوافلها عائدة من الشام ، فقد حان وقت عودتها .

كانت القوافل القادمة هي قوافل خديجة ، يسير في مقدمها محمد وميسرة ، فالتفت ميسرة إلى محمد وقال :

- هل لك أن تسبقني إلى خديجة ، فتخبرها بما صنع الله تعالى على وجهك ؟

فتقدم محمد ، وكان الوقت ظهرا وخديجة واقفة في غرفتها تنظر ، فلما رآته وهو راكب على جملة عرفته ، فاستعدت لاستقباله .



دخل محمدٌ عليها وسيماً جميلاً ، وراح يُقصُّ  
عليها ما فعله في الرحلة ، ويُخبرها بما ربحوا ،  
فتصغى إليه وهي مُشرحة ، تُحسُّ قلبها يتفتح له .  
ولما انتهى من حديثه ، قالت له :

- أين ميسرة ؟

فقال محمد :

- خلفته في الصحراء .

فقالت له خديجة :

- عجل إليه ، ليعجل بالإقبال .

أخبرها محمد بما ربح ، وهو ضعفٌ ما كانت  
تربح ؛ لم تكن تُريد ميسرة لتسمع منه أخبارَ  
التجارة ، بل كانت تُريده ليقصَّ عليها أخبار محمد ،  
وما فعله في رحلته . ؟

كَانَتْ خَدِيجَةُ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهَا ، وَكَانَ  
النَّاسُ يَدْعُونَهَا « بِالطَّاهِرَةِ » ، وَ « سَيِّدَةَ قُرَيْشٍ » ،  
وَكَانَتْ جَمِيلَةً ، بِيضَاءً ثَمِيلٌ إِلَى السَّيِّئِ ، وَكَانَ  
شَعْرُهَا أَسْوَدَ نَاعِمًا ، وَعَيْنَاهَا وَاسِعَتَيْنِ ، عَرَضَ  
عَلَيْهَا أَشْرَافُ قُرَيْشٍ أَنْ يَتَزَوَّجُوها فَرَفَضْتَهُمْ ، لِأَنَّهَا  
لَمْ تَجِدْ فِيهِمْ رَجُلًا كُفئًا لَهَا ، وَلَكِنَّهَا لَمَّا رَأَتْ مُحَمَّدًا  
أَحْبَبَتْهُ ، وَفَكَّرَتْ فِي أَنْ تَتَزَوَّجَهُ ، وَلَكِنْ كَيْفَ تَفَاتِحُهُ  
فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟

كَانَ مُحَمَّدٌ وَمَيْسِرَةٌ يَخْرُجَانِ مَعًا فِي تِجَارَتِهَا ،  
فَتَوَطَّطَتْ بَيْنَهُمَا الصَّدَاقَةُ ، فَرَأَتْ خَدِيجَةُ أَنْ تُرْسَلَ  
إِلَيْهِ مَيْسِرَةٌ ، يَفَاتِحُهَا فِي أَمْرِ زَوَاجِهَا ، فَجَاءَ مَيْسِرَةٌ  
إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ لَهُ :

— يَا مُحَمَّدُ ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ

فقال له محمد :

- ما بيدى ما أتزوج به .

فقال له ميسرة :

- وإن كُفيتَ ذلك ، ودُعيتَ إلى المالِ والجمال ،  
والشرفِ والكفاية ، ألا تُجيب ؟

قال له محمد :

- فمن هى ؟

قال ميسرة :

- خديجة .

فقال محمد ، وهو لا يكادُ يُصدّق :

- وكيف لى بذلك ؟ !

فقال له ميسرة :

- أنا أفعل !!

ذكر ميسرة خديجة أنه كلم محمداً في أمر زواجه  
منها ، وأنه رحب بهذا الزواج ، فرضيت خديجة ،  
وأرسلت إلى محمد :

- يا بن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرايتك ،  
وشرفك فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ،  
وصدق حديثك .

كانت خديجة قريبة محمداً ؛ كان قصي جدّه  
وجدها .

واتفقت معه على ساعة يأتى فيها مع أعمامه ،  
ليتم الزواج ، وفى الساعة التى جعلت موعداً ، جاء  
محمداً وعمه أبو طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ،  
وأشراف قريش ، ودخلوا فوجدوا أهل خديجة  
ينتظرونهم .



قام أبو طالب ، وقال :

- إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، لَا يُوزَنُ  
بِهِ رَجُلٌ إِلَّا رَجَحَ بِهِ شَرَفًا وَنُبْلًا ، وَفَضْلًا وَعَقْلًا ،  
وَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قِلٌّ ، فَإِنَّ الْمَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ ، وَقَدْ  
خَطَبَ إِلَيْكُمْ رَغْبَةً فِي كَرِيمَتِكُمْ خَدِيجَةٌ .

فقام ورقة بن نوفل - وكان قريب خديجة -

وقال :

- اشْهَدُوا عَلَيَّ مَعَاشَرَ قُرَيْشٍ ، أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُ  
خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

فقال أبو طالب ، لأنه كان يُريد أن يسمع القبول

من أقرب رجل إليها :

- قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ يَشْرَكَكَ عَمُّهَا .

فقام عمُّها ، وقال :

- اشْهَدُوا عَلَيَّ مَعَاشَرَ قُرَيْشٍ ، أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُ

خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

وقام الرجال إلى الوليمة التي أعدها محمد ،  
وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن  
بالدُّفوف . وتم زواج محمد الأمين ، بخديجة الطاهرة ،  
سيدة قريش .

## ٨

واتفقت قريش على تجديد الكعبة ، فجمعت  
القبائل من قريش الحجارَة لبنائها - كلُّ قبيلةٍ تجمعُ  
على حِدة - ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضعَ  
الحجرِ الأسود ، فاختلفوا : كانت كلُّ قبيلةٍ تريد أن  
يكونَ لها شرفٌ وضعه ، وزاد الاختلافُ حتى  
استعدت القبائل للقتال .

واجتمع أشرافُ قريشٍ في الحرم ، وراحوا  
يتشاورون فيما يفعلونه ، حتى لا تقوم الحربُ  
بينهم ، فقال رجلٌ منهم :

- يا معشرَ قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون  
فيه أوّلَ من يدخلُ من بابِ المسجد ، يقضى بينكم  
فيه .

فقبلوا وانتظروا أوّلَ من يدخل ، فكان أوّلَ من  
دخلَ محمدٌ بن عبدِ الله ، فصاحوا فرحين :

- هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

وأخبروه الخبر ، فقال :

- هلمّ ( هاتوا ) إلى ثوبا .

فجاءوا بثوب ، فأخذ محمدٌ الحجرَ الأسود ،  
فوضعه في الثوبِ بيده ، ثم قال :

- لتأخذُ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوب ، ثم ارفعوه

جميعا .

فأخذت كل قبيلة بناحية من زوايا الشوب ،  
ورفعوه بينهم ، حتى إذا بلغوا به موضعه رفعه ،  
ووضعه بيده ، وبني عليه .

رضيت قبائل قريش بما فعل ، أشركهم جميعاً في  
شرف رفع الحجر الأسود ، دون حرب أو قتال ،  
ونجّاهم برجاحة عقله من شرّ مُستطير ، فقد كانت  
الحروب تنشب لأتفه الأسباب .